

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذى أرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأمر الحكام والمحكومين باتباع شرعه فقال سبحانه : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء »^(١) وخص الحكام بالأمر بالعدل فقال عز وجل : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »^(٢) ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، الهادى الى الصراط المستقيم وبعد :

فهذا كتاب تتناول فيه حدين من حدود الله هما : قطع الطريق ، والخروج على الحاكم ، وهما من أشنع الجرائم التى تمس المجتمع المسلم ، وترمى الى تقويض دعائمه ، وزلزلة بنيانه ، وهدم أركانه .

ولفظ الجريسة فى اللغة يعنى اكتساب الاثم ، والحمل عليه^(٣) ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شأنن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى »^(٤) . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا معهم ، بل أنصفوهم فان الانصاف والعدل هو أقرب لتقوى الله . فالاجرام كسأ جاء فى الآية الحمل على فعل شئ محرم ، وفى ذلك دلالة على القصد والتعمد ، فلا يصير المجرم كذلك الا اذا قصد الفعل وتوجه اليه .

(١) سورة الأعراف : ٣

(٢) سورة النساء : ٥٨

(٣) انظر مادة جرم فى المختار الصحاح للرازى : ١٠٠ والمصباح المنير

الفيومى : ٩٧

والجرائم فى الشريعة الاسلاميه هى عصيان أوامر الله تعالى واتيان نواهيه . وعصيان الأوامر جرائم سلبية ، واتيان النواهي جرائم ايجابية :

ومن الأول : ترك الصلاة ، والزكاة ، والعدل بين الناس والشورى فى الحكم وغير ذلك .

ومن الثانى : ارتكاب الزنى ، والسرقه . والردة ، وقطع الطريق ، والبغى أى الخروج على الحاكم العدل وغير ذلك .

فالجريمة والمعصية كالتاهما يعنى عدم اطاعة أوامر الله ، وإن كان الملاحظ أن مصطلح (الجريمة) فيها خصوصية من جهة ايجاب عقوبة دنيوية لهذه الجرائم ، وفيها - كذلك - الاشارة الى القطع والانقطاع عن الجناعة ، والتكسب الآثم . أما المعصية فانها تعنى المخالفة لأوامر الله وارتكاب نهيهِ ، وقد يعبر عن ذلك بلفظ (السيئة) أو (الآثم) أو (الخطيئة) الذى يحصل كل واحد منها معنى عاماً يلتقى مع مصطلح الجريمة ، ويومىء - فى الوقت ذاته - الى معنى خاص فيه (٤) .

وقد حذرنا الله تعالى من الاعتداء على حدوده التى حدها ، وحدوده تعالى هى محارمه التى حرمها ، ومحارمه اما أن تكون هى المعاصى فتؤتى وقد قال فيها : « تلك حدود الله فلا تقربوها » (٥) أو تكون هى الطاعات فتترك وفيها قال : « تلك حدود الله فلا تعندوها » (٦) .

وحدود الله تعالى هى حقوقه سبحانه ، والاعتداء على حدوده اعتداء على حقوق الله تعالى ، والجنابة على حقه جنابة على أمن المجتمع

(٤) أما السيئة فانها تعنى الايداء للنفس أو للغير . والآثم يشير الى البطء عن الخير والابتعاد عنه ، والخطيئة تعنى الانحراف النفسى انظر : نظرة الى العقوبة فى الاسلام للشيخ محمد أبى زهرة ضمن : التوجيه التشريعى فى الاسلام : ٣٦
(٥) سورة البقرة : ١٨٧
(٦) سورة البقرة : ٢٢٩

والدولة الإسلامية ، فكل جنائية على حق الله تعالى هي جنائية على المجتمع المسلم ذاته ، وقد تكون الجنائية على آحاد الناس فتكون اعتداء على حق العبد ، كالجناية عليه بالقتل أو قطع الطريق أو الجرح أو الضرب أو غير ذلك مما يدور حول حقه الخالص ، ويكون سببا في أن يعطيه الشارع الخيرة في أن يفتنص أو يعفو الى الدية ، أو يعفو مجانا ، فيتنازل عن حقه أمام القضاء ، ومن الممكن الشفاعة في حقه ولو بلغ الأمر القضاء ، خلافا لحقوق الله تعالى التي لا شفاعة فيها اذا وصلت الى القضاء ، ولا سقوط للعقاب الا اذا تاب قاطع الطريق قبل القدرة على الامساك به (٧) .

وحدود الله تعالى هي التي تسس المجتمع مسأ يؤثر في بنيته وتكوينه وهي على التحديد : حد الزنى ، والقدف ، وشرب الخمر ، والسرقه ، وقطع الطريق ، والبغى (الخروج على الحاكم) ، والردة .

فتلك هي حدود الله التي قدر الله لها عقوبات محددة ولم يدع تقديرها لولى الأمر ، كقطع اليد في السرقه ، وجلد الزانى البكر ، وقتل المرتد بعد استتابته وغير ذلك . وكل جريمة اعتدى فيها على حق الله تعالى من تلك الحدود لها عقوبة تناسبها وتلائم القصد الاجرامى في الاعتداء على المجتمع . فان من الملاحظ أن كل جريمة من هذه الجرائم تنطوى على جانب اجتماعى ، وآخر شخصى ، قد يتغلب أحدهما على الآخر ، لكن الاجتماعى ملحوظ بوضوح ، ومن ثم نسبت هذه الجرائم الى آثارها فيقال عنها : جرائم اجتماعية ، وفي الشرع أطلق عليها حدود الله ، وحقوقه .

فجريمة الزنى قد ينظر اليها على أنها تصرف شخصى ليس فيه معنى الاعتداء على المجتمع ، دون ملاحظة أنها جريمة فيها اعتداء على حق

(٧) هذا هو المجمع عليه بالنسبة للتوبة قبل القدرة ، وهناك خلاف في سائر الحدود تفصل القول فيه في هذا البحث ان شاء الله تعالى .

الله الخالص ، وقد حرمتها جميع الأديان ، واستهجنها العقول السليمة ، لما فيها من اشاعة الفاحشة في المجتمع ، واعتداء على النسل باختلاط الأنساب ، وتوريث من لا يستحق الارث ، وانتشار الأمراض الجنسية وأخطرها في عصرنا مرض الايدز (فقدان المناعة) ، واثارة الأحقاد والفتن ، وتهديد الأسر المطمئنة ، وتفككها ، وشيوع القلق النفسى ، والاضطراب والحيرة ، وتنشئة أطفال حرموا من حنان الأمومة ، وعاطفة الأبوة ، مما ينذر بهلاك هذا المجتمع الذى شذ عن منهج الله ، واعتدى على حقوقه ، وعصى أوامره ولم يطبق شرعه (٨) .

وجريمة القذف قد يتغلب فيها الجانب الشخصى ، لكن الأثر الاجتماعى أثر فادح ، اذ فى اتهام البراءة بالزنى دون بينة اشاعة للفاحشة فى الذين آمنوا ، وهدم للأخلاق الاسلامية المبنية على العقيدة . وتهوين للزنى فى نفوس الضعفاء ، وتطويع القلوب المريضة لفعل الفاحشة ، وبخاصة اذا كان المتهم رجلا كبيرا أو امرأة لها مكانة سامية فى المجتمع ، عندئذ يقال : اذا كان فلان الكبير وفلانة العظيمة قد فعل كذا فما أيسر الحرام حينئذ . ويقرر القرآن أن هذا الأمر الذى عدوه هينا هو كبير عند الله فقال سبحانه بصدد اتهام عائشة - رضى الله عنها - : « وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم » (٩) .

ومن أجل هذه الآثار الاجتماعية التى تسمى فى الشريعة بحقوق الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحرم كل وسيلة تقرب الى الزنا ، ومنها العرى ، والتبذل ، « والأعمال الفاضحة الخادشة للاحساس العام كتنقيب امرأة فى الطريق أو الافزواء بها فى مكان خال ، ولقد جاء فى الأحكام السلطانية لأبى يعلى ما نصه فى أعمال المحتسب :

(٨) انظر : تفسير سورة النور للمؤلف : ٤٢

(٩) سورة النور : ١٥ - ١٦

« إذا رأى وقوف رجل وامرأة في صريق لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما ، فما يجد الناس بدا من هذا ، وإن كان الوغوف في صريق خالية . فنجو المكان ريبة فينكرها ، ولا يسجل في التأديب عليها حدرا من أن تكون ذات رحم محرم ، وليقل له ان كانت ذات رحم محرم فصنها عن مواقف انتهمة ، وإن كانت أجنبية فاحذر من خلوة توديك الى معصية الله تعالى » (١٠) .

وقد بينا في هذا البحث حدين من أعظم الحدود تأثيراً في المجتمع هما : قطع الطريق والخروج على الحاكم ؛ فكلاهما اعتداء على أمن المجتمع ونظامه وعقيدته ، فذكرنا النصوص الشرعية من القرآن والسنة التي تناولت هذين الموضوعين ، وفصلنا القول في شروط هاتين الجريمتين ، وعقوبتهما وبيننا أثرهما في المجتمع ، وعرضنا كذلك دفع الصائل ومشروعيته وحكمه ودرجاته وأثباته .

وقد اعتمدنا في هذا كله على أوثق المصادر من كتب التفسير والحديث وشروحه ومصادر الفقه ، وبخاصة فيما يتعلق بالخروج على الحاكم ، لأن كتب التاريخ مليئة بأقوال تحتاج الى تضييق وتدقيق .

وقد وضعنا ضوابط ومحاذير حول الخروج على الحاكم الكافر أو الجائر . أما الحاكم العدل فيحرم الخروج عليه قولاً واحداً ، فإن الخروج على الحكام والولادة هو «أساس كل شر وفتنة الى آخر الدهر» كما يقول ابن قيم الجوزية في اعلام الموقعين (١١) .

وكما وضعنا هذه الضوابط والمحاذير حول الخروج على الحاكم فإننا قد ناشدنا الحكام أن يستلوا أمر الله عز وجل بتحكيم شرعه ، وتطبيق منهجه ، فإن العزة كل العزة في مولادة الله ورسوله صلى الله عليه

(١٠) الجريمة لشيخنا محمد أبي زهرة : ١٤٢

(١١) ٦/٣

وسلم ، والصغار كل الصغار في مخالفة أمره ، وموالاته أعدائه .
فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم
عذاب أليم» (١٢) .

إن الله عز وجل نهي الصحابة والمؤمنين أن يرفعوا أصواتهم فوق
صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، وألا يجهروا له بالقول وألا حبست
أصواتهم ، وصارت هباء منثورا يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا
لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر
منكم لئلا يسمع أن تحبسط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » (١٣) ، ويعلق
ابن قيم الجوزية على هذه الآية فيقول : « فإذا كان رفع أصواتهم
فوق صوته سببا لحبوط أعمالهم ، فكيف تقديم آرائهم ، وعقولهم .
وأذواقهم ، وسياساتهم ، ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه ؟! أليس
هذا أولى أن يكون محبط لأعمالهم ؟! وقال تعالى : « انما المؤمنون الذين
آمَنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا
حتى يستأذنه » (١٤) ، فإذا جعل من لوازم الايمان أنهم لا يذهبون
بذهبها إذا كانوا معه الا باستئذانه ، فأولى أن يكون من لوازمه
أن لا يذهبوا الى قول ولا مذهب علمي الا بعد استئذانه ، وإذنه يعرف
بإذنه ما جاء به على أنه أذن فيه » (١٥) .

إن أمن المجتمع وأمانه مرتبط ارتباطا وثيقا بتطبيق شرع الله كله ،
واقامة حدوده . وامتثال أمره ، بالكييفية التي شرعها دون افراط
أو تريط ، وعدم تطبيق شرع الله أو بعضه هو كفر بنعمة الله ،
يستتبعه القلق وعدم الأمن ، « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة
مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس

(١٢) سورة النور : ٦٣

(١٣) سورة الحجرات : ٢

(١٤) سورة النور : ٦٢

(١٥) اعلام الموقعين : ٥٤/١ - ٥٥

الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» (١٦) ، ان الله العزيز الغالب قد أعلن الحرب على المرابين فقال عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » (١٧) ، فاذا كانت الحرب تعلن من قبل الله ورسوله على من لم يذر الربى ، فكيف يكون حالنا اذا كنا قد تحاكمنا الى قوانين وضعية من صنع البشر ، وتركنا شرع رب البشر !! « أفحكّم الجاهلية يبعون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١٨) .

ان الله وعده المؤمنين بالإمان والأمن ، والتسكين من الأرض ، والاستخلاف فيها بشرط الايمان به ونظيق شرعه ، والعمل على منهجه ، وعبادته عبادة خالصة فقال سبحانه : « وعد الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحسون » (١٩) .

ووعده الله قائم ، وقد تحقق مرات ومرات من قبل ، حين نفذ المؤمنون شرط الله ، فكسروا كسرى كسراً لم ينجبر بعده أبداً ، وقصروا قيصر فلم تقم له قائمة بعدها أبداً ، ودانت لهم العباد ، وفتحت لهم البلاد ، بتأييد الله لهم « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (٢٠) . فحين تحقق الشرط وفى الله لهل بالمشروط ، « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون » (٢١) .

(١٦) سورة النحل : ١١٢

(١٧) سورة البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩

(١٨) سورة المائدة : ٥٠

(١٩) سورة النور : ٥٥ - ٥٦

(٢٠) سورة الصف : ١٤

(٢١) سورة البقرة : ٤٠

وهذا هو الطريق •

والله أسأل أن يجعل هذا البحث منارة على طريق جمع الكلمة ،
ورحمة الصف ، ورأب الصدع ، وأن يكون لبنة في إعادة تطيين
الشريعة ، وهو سبحانه خير مسئول ، وأكرم مأمول « ان أريد
إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه
الرجع » .

الفقير الى غفو ربه
اسماعيل سالم عبد العال
الأهرام - ش الملك فيصل
رمضان سنة ١٤١٣ هـ
مارس سنة ١٩٩٣ م